

بدايات التعليم في مشتى الحلوة (منطقة صافيتا - سورية)

عيسى فتوح^٥

تعود بدايات التعليم في «مشتى الحلوة» إلى عام ١٨٧٩، وأوّل معلّم مارس هذه المينة هو المرحوم إشير عبدوش، وقد كان معلّمًا صارمًا قاسيًا، ربّما لأنّه كان متسابقًا في رجليه، ويعرج إذا مشى.

يعتبر بيت إشير عبدوش أوّل مدرسة في المشتى وضواحيها، ولم يكن المعلّم متفرّغًا لشؤون التعليم، بل كان يمارس أعمالًا أخرى. بالإضافة إلى كونه معلّمًا، وكانت الصناعة الشعيّة المعروفة في المشتى هي حياكة العباءات. لم يكن المعلّم يملك ساعة لتحديد الوقت، فكان التلاميذ يكرّون في الحضور إلى المدرسة، ومَن تأخّر عن الوصول في الوقت المعيّن، نال عقابًا صارمًا يتناسب مع مدّة التأخّر. يظنّ التلاميذ في المدرسة من الصباح حتّى المساء، وعند الظهر يذهبون إلى بيوتهم لتناول طعام الغداء، وكان كلُّ تلميذ يحمل إلى معلّمه رغيفًا من الخبز، وقطعة من الحطب لإشعال النار في الشتاء، ومَن حمل معه شيئًا آخر كالفاكهة وغيرها، نال حظوة كبيرة في عيني المعلّم.

لم تكن تتخلّل الدروس أيّة فرص أو استراحات، وإذا احتاج التلميذ إلى قضاء حاجة، ذهب إلى المعلّم ووسط أمامه راحة كفه قائلاً: «دستور يا

(٥) أديب وناقد وباحث من سورية (مشتى الحلوة).

معلمي، فيصره المعلم حينئذ يرفق أو بشدة بقضيب من الرمان لم يكن ينفارق يده أبداً، وسمح له بالخروج أو يعتذر عن تلبية حاجته .

كانت القراءة تتلى بصوت عال، فإذا انخفضت الأصوات، نبض المعلم وأخذ يُليب ظهور التلاميذ بقضيب الرمان المذكور، فترفع أصواتهم من جديد، حتى تكاد تصم الآذان. وكان «انفلق» - وهو الضرب بالعصا على قنا الرجلين - أشد أنواع العقوبات التي تنزل بينهم، وبالإجمال كانت العقوبات شديدة لا رحمة فيها ولا شفقة .

وحيثما كان التلميذ ينتهي كتاب المزامير للتيّ داود، يربط رفاقه بديه بزئاره إلى الوداء، ويذهب به المعلم وجميع التلاميذ إلى بيت أهله، وقد أمسك أحد التلاميذ بطرف الزئار السائب. وعند وصولهم يستقبلهم الأهل بالترحيب، فيقدمون للمعلم هدية خاصة، ويضعون للباقيين طبقاً من الزبيب والتين المجفف وغيرهما، أما أجره المعلم فكانت نصف ريال مجيدي على كل «سحر» من أقسام المزامير^(١).

كان التلاميذ يكتبون في بداية تعلمهم بالقلم الغزّار والحبر على صفيحة معدنية لامعة من صفائح البترول توفيراً للورق، فإذا امتلأت محاسنها التلميذ بغسلها في الماء وتنشيفها لاستعمالها مرة أخرى. وكان الخط نوعين: «الكتبي» وهو خط واضح يستعمل لنسخ الكتب، و«المعلّق» يستعمل في المراسلات والدواوين.

المدرسة الإنجيلية في المشتى

كان التنافس على افتتاح المدارس بين اليسوعيين والمرسلين الأميركيين على أشده في كلّ مكان من سورية ولبنان، وقد تجلّت صورته واضحة في مشتى الحلوة، فكلّما افتتح اليسوعيون مدرسة سارع المرسلون الأميركيون لافتتاح مدرسة أخرى مماثلة، واستدرجوا الطلاب إليها

(١) يقسم كتاب المزامير إلى سبعة أقسام يُسمّى كلّ قسم منها «سحرًا» يتلى من كلّ صباح سحر ذلك اليوم.

بمختلف الوسائل والسبل، ولذلك فعندما افتتح اليسوعيون مدرسة في حارة المواردنة «بيت سركيس»، واستخدموا للتعليم فيها المعلم ميخائيل ابن الخوري يوسف صاحب النفوذ القوي في القرية، والمعلم جرجس القراء المعروف جيداً في المشى، أسرع القس أوسكار هاردن، والدكتور صموئيل جيب، والدكتور الطيب وليم كليون من طرابلس إلى المشى وطلبوا من وجيهاها أن يأذنوا ليم بفتح مدرسة يديرونها بحسب نظام المدارس الأميركية، فوافق الأهالي على طلبهم، وأرسل لهم المعلم قاسم أبو غانم من كفر نبرخ في لبنان، وزوجته المعلمة شمس ابنة واعظ كنيسة صافيا الإنجيلية، ففتح المعلم قاسم مدرسة للصبيان، والمعلمة شمس مدرسة للبنات في الغرفتين الخارجيتين من دار سليمان الحلو عام ١٨٨٠، وقد استعملت فيهما الحركات والقراءة المشكّلة، والحساب المركّب، والكسور، وغير ذلك من مبادئ العلوم الحديثة.

لكنّ هذه المدرسة لم تعش طويلاً لأنّ معلّمها الأخير ديب الكفورتي لم يكن مستتراً في أفكاره وآرائه ومبادئه، ولم يطمئن لعلاقته بالمرسلين الأميركيين، لذلك تحوّل عنهم إلى مدرسة اليسوعيين في «بيت سركيس»، وانحلّت المدرسة الإنجيلية.

ولمّا تخرّج المعلم نسيب متري الحلو من مدرسة صيدا الأميركية، ورأى ما آلت إليه مدرسة قرية المشى، اتّفق مع المرسلين الأميركيين: القس مارش، والدكتور بلصن، في أثناء زيارتهما المشى، على إعادة افتتاح المدرسة الإنجيلية فيها، فوافقا على ذلك بشرط أن يتولّى هو التعليم فيها، وقد رضي لتلا نفوت الفرصة، وبقي المشى بلا مدرسة إنجيلية، فترك حمص بعد أن علّم في مدرستها الإنجيلية سنتين (١٨٨٩-١٨٩٠)، إلاّ أنّه لم يتقدّم أحد في القرية لمناصرته وشدّ أزره، بسبب نفوذ اليسوعيين، وميل سكان المشى الأرثوذكس إليهم.

لَقِيَ المعلم نسيب الحلو صعوبات جمّة في إعادة افتتاح المدرسة الإنجيلية في البلدة لأسباب منها أنّ كبير عائلة الحلو كان يمالئ

اليسوعيين، لكن ذلك لم يوهن عزيمته، ولم يضعف من إرادته، بل زاده إصرارًا وتصميمًا، وفعلاً فتح المدرسة بعدة قليل من التلاميذ الذين كان أهلهم غير واثقين بتعليم اليسوعيين، فأخذت تنمو شيئًا فشيئًا، ويزداد عدد طلابها بالاشتغال من مدرسة اليسوعيين، الأمر الذي أدى إلى تقليص عدد معلمينا من ثلاثة إلى اثنين. والمريب أن أخا نسيم الحلري، واسمه أنيس، كان أحد معلمي مدرسة اليسوعيين الرئيسيين، وكان الأب اليسوعي المسؤول يدعى إلى الضيافة في بيت الأخوين نسيم وأنيس المشترك، لا إلى الطعام فحسب، بل إلى النوم أيضًا، فلا يُفْطِر أحد الجفء أو العتاب للآخر.

يروي المعلم نسيم الحلري في مذكراته^(٢) هذه الحادثة النظرية التي تبين مدى التنافس الشديد بين المدرستين: الإنجيلية واليسوعية، وانقسام عائلة الحلري الكبيرة إلى فريقين يناصر كل واحد منهما إرسالية ومدرسة، فيقول:

«حدث ذات يوم، وأنا أعلم في المدرسة، أن دخل عليّ عمي كبير عائلة الحلري، ومقدم البلدة، وهو يتوكلًا على عصاه، فوقف في وسط الغرفة، وقال بلهجة الأمر: «ياذن من فتحت هذه المدرسة؟»، فأجبه فورًا ودون لجلجة «ياذنك!» فبغت ليذا الجواب، ثم عاد فقال: «إصرف التلاميذ ولا تقبل أحدًا عندك» فأجبه: «أنا مأمور بأن أفتح المدرسة لكل طالب، وسأستمر في فتحها، أما أنتم فيمكنكم أن تمنعوا التلاميذ من المجيء إلى مدرستي»، وبهذا القدر من الحوار تمت المقابلة، وقفل راجعًا، وبقيت المدرسة سائرة على سابق عهدها من الحرية، وافتتح المقاومون بعدم جدوى هذه المناورات».

استمرت المدرسة الإنجيلية تتقدم بخطى حثيثة، وتستقطب أبناء المشتى حتى عام ١٨٩٤، حيث غادرها المعلم نسيم ليبتحق بمدرسة اللاهوت في سوق الغرب، ويعدّها إلى صيلا ليتولى إدارة مدرسة القنون

(٢) نشرتها مكتبة «المشعل» في بيروت العام ١٩٥٠.

الأميركية فيها، فأخذت مدرسة المشى تتعثر وتضطرب، لأنه لم يحل محلّه معلّم كفؤ، يسهر على مصلحة أبناء قريته ويرعاهم كرعائهم، حتى توقفت نباتيًا في منتصف الأربعينات من هذا القرن.

أما اليسوعيون فقد ابتوا ديرًا ومدرسة للراحيات في قرية كنفرون بشوره القريبة من مشى الحلو، ولمسوا من أهل القرية الموارنة كلّ عون وتشجيع على الاستمرار في أداء رسالتهم التبشيرية والتعليمية، ثم توسّع نشاطهم شيئًا فشيئًا حتى شمل جميع القرى المحيطة، بغض النظر عن مذاهب أهلها، وانتماءاتهم الطائفية، ولا تزال هذه المدرسة قائمة حتى اليوم، تواصل مهامها التربوية والتعليمية والتنشيطية، ولكن حتى نهاية المرحلة الابتدائية فقط.

ذكرت طائفتين من البعثات التبشيرية التي أتخذت من المشى وضواحيها مركزًا للتنافس، وفاتني أن أشير إلى بعثة ثالثة روسية وصلت إلى تلك المنطقة، وابنت مدرستين ابتدائيتين، الأولى في كنفرون بديره والثانية في مشى الحلو ذاتها، وكأنا تعلمان اللغة الروسية إلى جانب اللغة العربية، ولا يزال عدد من المعلمين في كنفرون بديره يجيدون تلك اللغة ويتحدثون بها حتى اليوم، لكننا استقرض بموتهم حتمًا، وقد تحوّلت المدرستان الروسيّتان إلى مدرستين رسميتين، ولم يبقَ أثر لتعليم الإرساليات التي مثلت دورًا كبيرًا في التنشيط والتعليم معًا.

في مشى الحلو اليوم ثانوية رسمية واحدة، ومدرستان ابتدائيتان رسميتان للذكور والإناث، ولا داعي لأن أذكر أن القرى المحيطة قد غطيت بشبكة من المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية، لكننا مع ذلك نقصّر عن استيعاب الطلاب الذين يزدادون كثافة عامًا بعد عام، بسبب إقبال الناس الشديد على العلم، نتيجة للوعي المبكر الذي انتشر في المنطقة، ومبعثه تنافس الإرساليات الثلاث المذكورة على فتح المدارس ونشر العلم، فجنى الشعب من ذلك أفضل الثمار.

